

دور ابراهيم عبد القادر المازني في الرومانسية

د/ أشرف الدين

الأستاذ المساعد،

كلية م س م كايمكولم

الحركة الرومانسية تعتبر قبل كل شيء حركة أدبية. أساسها الإيمان بالشعر المبدع. والإنسان الذي يسبر غوامض القلب البشري ويغزو عالم الغرائز والمشاعر والأحاسيس. إن شعر شكري ومازني وزنا ولفظا كان قد تأثر بهذا الاتجاه. ولقد تأثروا بشدة بكتاب "الدخيرة الذهبية" الذي كان مقررا عليهم دراساته خلال دراستهم في مدرسة المعلمين. فعبروا بأشعارهم عن الحياة النبيلة التي تنسموا نسيمها وأحسوا بوادرها في واقعهم المصري، كما أحسوا لها صورا في حياة الشعراء الأوروبيين.

وكان المازني الثاني في إصدار ديوان شعر من كتاب الجيل الجديد. فأصدر جزءه الأول، وكتب مقدمته العقاد مثلما كتب مقدمة ديوان شكري. وأخرج المازني ديوانه في أسس الشعر الرومانسي الإنجليزي. كان أهدافه في الشعر هي التفكير في النفس والحياة الإنسانية وشقاء البشر.

كان يكتب في صحيفة "الجريدة" وهو لا يزال تلميذا في مدرسة المعلمين وانعقدت أسباب المودة بينه وبين عبد الرحمن شكري. وأخذ ينظم معه الشعر على أسلوب جديد. في ضوء ما قرأ من شعر الإنجليز وخاصة عند أصحاب النزعة الرومانسية أمثال شلي Shelly وأصحاب البحيرة، وسرعان ما تعرف على العقاد وكون معه ومع شكري الجيل الجديد. كان مدرسة المعلمين تهتم باللغة الإنجليزية. فعكف على قراءة دواوين شعرائها الكبار أمثال شلي وشكسبير وبيرون.

تمكن المازني والعقاد من إحداث بعض التغيير في الذوق الأدبي السائد عن طريق كتابتهما النقدية أكثر منه عن طريق شعرهما، فإن ما شنأه من هجوم على شوقي والكلاسيكية الجديدة في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين شجع الجمهور المثقف على أن يصغي لأصوات غير أصوات التقليديين. هذا الدور الذي قام به المازني العقاد في مصر أدى مثله دعاة التجديد الذين كانوا أشد تطرفا وثورية في لبنان والمهجر أمثال جبران ونعيمه.

ولولا تلك المعارك الأدبية وجلبة الكتابات النقدية الصاخبة، لتعذر انتشار الرومانتيكية على نحو ما انتشرت في الشعر الحديث.

المازني شاعر

يعرف الناس "المازني" الشاعر كما يعرفونه قصاصا وناقدا، وكاتب مقال، ومترجما، وربما كان الشاعر فيه هو لأول وجوهه، وأولاهها بالتقديم، ولولا هذه الشاعرية لما كان القصاص ولا الكاتب منه على هذا المستوى الرائع من النفاذ والعبقرية. وهذه السطور عن المازني الشاعر لا تدعي الإحاطة بهذا الشعر وشاعره، وحسبها أن تكون إشارة إلى تلك الملكة العالية.

قد ابتدأ حياته شاعرا. نذر نفسه لعالم الشعر مؤصلا لمنهج جديد في الشعر الصادق النابع من أعماق النفس، ثم مبدعا في نفس الوقت لأشعار لم تجد حتى اليوم من يبرزه ويكشف عما انطوت عليه وضمته من كنوز وذخائر. عرفته الصحافة أول ما عرفته شاعرا مبدعا كما عرفته صاحب دعوة جديدة في الشعر يوجه نقده اللادع إلى شعراء عصره. وقد خص منهم بنقده شاعرا كبيرا ذا شهرة عريضة بين شعراء مصر فهو حافظ إبراهيم. ولم تكن في أشعار المازني سياسة ولا وطنية ولا قضايا اجتماعية، وإنما هي تجربة نفسية تامة تفيض بالألم والكآبة إزاء الطبيعة والتفكي في النفس والحياة الإنسانية ومتاعس بشرية.

قبل أن نعرض للمازني الشاعر لا بد أن نتعرف رأي مدرسته في الشعر. ولعل مقدمة الجزء الأول من ديوان المازني التي كتبها الأستاذ العقاد تترجم رأي هذه المدرسة في الشعر، وقد تكلم الأستاذ صفحة (م) عن وجوب تنقيح أوزاننا وقوافينا لأنها أضيق من أن تنفسح لأغراض شاعر تفتحت مغالق نفسه وقرأ الشعر الغربي. ورحب بالمثل الذي قدمه المازني في ديوانه من القافيتين المزدوجة والمقابلة، على أنه لا يعد هذا غاية المنظور من وراء تعديل الأوزان والقوافي وتنقيحها، ولكنه بعده بمثابة تهيئة المكان لاستقبال المذهب الجديد.

تأثر المازني كثيرا بأشعار ابن الرومي وعارضه في بعض قصائده، كما تأثر كثيرا بعدد من شعراء الغرب مثل شيلي، بيرنز، ميلتون، هيني، وكان دائم التطوير والتجديد في الأفكار والموضوعات مع الالتزام التام بالصدق في التعبير. وذلك على حساب الشكل الفني والأساليب والعبارات. ورغم هذا فقد كان يجد صعوبة في تطويع الشعر لأفكاره خصوصا قوافيه التي كانت تضطره إلى استخدام ألفاظ غريبة ومشتقات شاذة مما ألجأه إلى شرحها في ديوانه الأول والثاني. ويرجع ذلك إلى تمسكه باللغة التقليدية في بداية حياته.

المازني والشاعر الإنجليزي

وقد تأثر المازني بالشعر الإنجليزي من حيث الموضوع وأسماء القصائد. فالأسماء التي خلعتها المازني على قصائده من مثل 'الوردة الذابلة' وهي من قصائد الجزء الأول من ديوانه، هذه القصيدة وغيرها مما حاكى المازني نطالها في كتاب The golden treasury وهو مجموعة من الشعر الإنجليزي لشعراء مختلفين .

إنه يرى الشعر ترجمة حميمة عن النفس وشفا عن مكنوناتها، ورغم أنه قد هجر الشعر في سن السادسة والعشرين وهي سن صغيرة إلا أن إنجازه الشعري لا يستهان به حيث أصدر ديوانه في ثلاثة أجزاء. صدر الجزء الأول منها في عام 1914 م، كما كتب العديد من الكتب عن الشعر والشعراء مثل شعر حافظ، ثم حصاد الهشيم وقبض الريح. وفي هذين الكتابين دراسات عن العديد من الشعراء مثل المتنبي وابن الرومي. وفي كل هذه الكتب يقدم دراسات نفسية واجتماعية وتاريخية أي إنه يقدم العصر بكامله وكان هذا لونا جديدا في الدراسات الأدبية. وقد ترجم المازني بعض القصائد عن الإنجليزية لموريس Morris وشكسبير وجيمس رسل لويل. James Russel Loyal

رأي المازني في الشعر

وقد فصل الأستاذ المازني الحديث عن نشأة الشعر وتطوره وظهور الشاعر. انتهى منه إلى أن عرف الشعر بأنه "خاطر لا يزال يجيش في الصدر حتى يجد مخرجاً ويصيق متنفساً. ويعتبر الألفاظ قاصرة عن العبارة عما في النفس والإحاطة بجميع ما يختلج في الصدر ويدور في ذهن من المعاني ودليله على هذا القصور. إن النظرة قد تقوم مقام اللفظة في نقل المعنى من ذهن إلى ذهن وإن التلميح قد يكون أبلغ في العبارة من التصريح.

يقول الشاعر: الشعر صعب وطويل سلمه

إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

هوت به إلى الحضيض قدمه

فأما أنه صعب فصحيح. ووجه الصعوبة فيما يبدو لي، أن الملكة وحدها لا تكفي، وأنه لا معدى عن الأداة التي يتسنى بها للملكة أن تظهر وتبدي. ولكل فن أدواته، فأداة الموسيقي مثلا الاصوات المؤتلفة أو المنسقة أو المتجازبة التي تلائم المعاني المقصودة وتصورها في نفس السامع. وأداة التصوير الألوان من بسيطة ومركبة أو

متزاوجة، وأداة الشعر تأليف الكلام على نحو يفيد القارئ أو السامع معاني الجمال والجلال التي يراد العبارة عنها.

أما أن السلم طويل، فأحسب أن المراد به، ما نفهم نحن في زماننا أنه المراد به، هو اكتساب المرونة والمرانة في الأداء. فإن كل فن - ككل صناعة - نكتسب المرونة فيه على الأيام، ولا يخلو أمره في البداية من بعض العسر، وأذكر أن المرحوم حافظ إبراهيم كان في مجلس شهادته فأوحى إليه الحديث الدائر معنى ارتجله في بيتين، فقال له بعضهم ارتجلتهما أم كنت نظمتهما من قبل، فقال الحافظ: لي أربعون من السنين وأنا أنظم الشعر فكيف لا أقدر على ارتجال بيتين اثنين. وقد كان حافظ شاعرا ليس إلا. ولم يكن ممن يعنون أنفسهم بالبحث، ولكنه أصاب في جوابه الذي نطق به على البديهة. فإن سهولة النظم أو سهولة الإعراب عما يدور في النفس أو الذهن من ثمرات المزاوة الطويلة.

وليست العبرة في حسن الأداء ووفائه بكثرة المحفوظ، وإنما هي بالقدرة على تخير الرموز الدالة على المراد أو أوفي دلالة. وكما أن الغنى الواسع الثراء لا يحتاج إلى كل ماله في مطالب العيش كذلك لا يحتاج الكثير المحفوظ إلى كل ما حفظ وكل ما تفيده الكثرة هنا هو الخبرة بأساليب التعبير والوانه والثقة بالنفس.

لقد قال النقاد عن سيلر الشاعر الألماني إن الألفاظ التي استعملها في قصائده ورواياته قليلة، ولكنه استطاع بهذا القليل أن يؤدي معانيه جميعا أحسن أداء وأجمله. وكان جوتيه معاصره وزميله يمتاز بالثراء اللغوي، ومع ذلك لا يخلو كثير من شعره من الغموض المتعب، لا لأنه كان أعمق فإن العمق ليس عذرا للعجز عن الإبانة.

ليس الشعر "علما" كما يمكن أن يتوهم الذي يقرأ قول الشاعر "إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه" وعسى أن تكون القافية قد جنت عليه في هذا التعبير، ولو كان الشعر علما لكان أولى بالنبوغ فيه المتأخر دون المتقدم، ولكن الأمر يكاد يكون على النقيض. على أنه ليست هناك قاعدة مطردة، فالشعراء ينبغون في عصور البداوة وفي عصور الحضارة على السواء تقريبا. ولا ضابط هناك ولا قاعدة ولا مقياس يعول عليه. لأن الأمر في الشعر ليس مرجعه إلى العلم أو الثقافة أو الحضارة. بل إلى المواهب الشخصية وإلى الأحوال الاجتماعية التي تساعد على ظهور هذه المواهب. والحقيقة الوحيدة التي يمكنني فيما أرى استخلاصها من تاريخ الأدب في الأمم المختلفة هي أن نهضة الأدب في بلد ما تكون إيذانا بنهضة عامة في هذا البلد. في كل باب. وقد رأينا مصداق هذا في تاريخ

الرومان واليونان والهند والفرس وإيطاليا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا وروسيا. فما من نهضة قومية في بلد من هذه البلاد إلا وقد سبقتها نهضة أدبية .

ديوان المازني

وللمازني ديوان في جزئين. وقد بدأ في نظم الجزء الأول من ديوانه في سنة 1910 وطبعه سنة 1913 وطبع الجزء الثاني من ديوانه في أواخر سنة 1915 وأوائل 1916. والجزء الأول من ديوان المازني تعلوه مسحة من الأسى والحزن تمثلها قصائد الماضي والدار المهجورة والجمال إذا هوى والاخوان وفتى في سباق الموت وأحلام الموتى وثورة النفس والوردة الذابلة وبعد الموت ومناجاة شاعر والقصيدة التي جعل عنوانها إلى صديق قديم وقبر الشعر وعتاب وثورة النفس في سكونها. ولم ينس أن يعقد من سحائب الحزن نونيته الطويلة إلى عارض فيها ابن الرومي شاعره الأثير ومنها هذه العبرات:

يا ليت لي والأمني إن تكن خدعا	لكنهن على الأشجان أعوان
غارا على جبل تجري الرياح به	حيرى يزافرها حيران لهفان
والبحر مصطفق الأمواج تحسبه	يهيج طرب مثلي وأشجان
إذا تلفت في خضرائه اعتلجت	آذيه فلسرى منه إعلان
خل القصور لخالي الذرع يسكنها	وخير ما سكن المعمود غيران
حسبي إذا استوحشت نفسي لبعدهم	بالبحرانس وبالأرواح جيران
لا كالرياح سمير حين ثورتها	إذا ما لأسرارها في الصدر أجنان

وقدم له العقاد فصور طريقهم الجديدة، وكيف أنها تقوم على وصف آلام الإنسانية والتعبير عن أناتها. حتى ليصبح الشعر زفرات وعبرات، وأطال القول فيمن ينزعون منزع القدماء، ولم يرتض الجديد الذي كان يردده شوقي وحافظ من تصويرهما لحياتنا العامة ومن وصفهما للمستحدثات والمخترعات، قال إن أمثال هذين الشعارين لا يمتازون في شيء عن القدماء. ورماهما كما رمى اضراهما جميعا غير صادقين فيما يعبرون عنه. إذ يعثران عن معان لا يؤمنون بها فيمدحون من يحتقرونه بينهم وبين أنفسهم ويهجون من يحترمونه.

المصادر المراجع

1. أحمد عبد المعطى حجازى، مدينة النور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000.
(Ahmed Abdel-Moati Hegazi, City of Light, The General Egyptian Book Organization, ed. 1, Cairo, 2000)
2. أحمد عبيد، مشاهير شعراء العصر، في الأقطار العربية، بيروت، 1994.
(Ahmed Obeid, Famous Poets of the Era in the Arab Countries, ed. 1, Ma'rifa Press, Beirut, 1994)
3. أحمد هيكل، تطور العربي الحديث في مصر، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، 1983.
(Ahmed Heikal, The Development of Modern Arabic in Egypt, 4th edition, Dar Al-Maaref, ed.1, Cairo, 1983)
4. أنيس مقدس، الإتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، دار ملايين، بيروت، 1988.
(Anis Muqaddas, Literary Trends in the Modern Arab World, Dar Malayin, ed. 1, Beirut, 1988)
5. جبران خليل جبران، الأجنحة المنكسرة، مطبعة كرم، بيروت، 1974.
(Gibran Khalil Gibran, The Broken Wings, Karam Press, 3rd ed., Beirut, 1974)
6. حسين أدهم جرار، شاعرات معاصرات، مؤسسة الزيتونة، عمان، 2001.